المادة: الأسلوبية وتحليل الخطاب الأستاذ: فريد زغلامي

المستوى: السنة الثانية ليسانس دراسات أدبية/ الفوج 03

المحاضرة الأولى: مفهوم الأسلوبية ومجالها

تعد الأسلوبية من بين المباحث العلمية الحديثة التي كان لها أثر واضح في الدراسات الأدبية والنقدية على وجه الخصوص، حيث أضافت إسهامات لا تبخس في الاقتراب من النص الأدبي وكشف وتقرير جمالياته التي يتفرد بها عن غيره. نحاول في هذه المحاضرة الأولى أن نتعرف على مفهوم الأسلوبية ومجالها ونشأتها وصلتها وعلاقتها بالعلوم الأخرى.

1/ مفهوم الأسلوب:

أ/ لغة:

جاء في لسان العرب(مادة سلب):" الأسلوب هو السطر من النخيل، وكل طريق ممتد، والوجه والمذهب، والجمع أساليب"، وعرفه "الجرجاني":" إنه الضرب من النظم والطريقة فيه".

ب/ اصطلاحا:

لفظ الأسلوب "Style" اصطناع لغوي مستحدث نسبيا، يمتد إلى الكلمة اللاتينية "Stilus" التي كانت تطلق على مثقب معدني يستخدم في الكتابة على الألواح المشمعة (المدهونة)، ثم تطورت دلالته التأثيلية عبر القرون، من الدلالة على "كيفية التنفيذ" في القرن الرابع عشر الميلادي، إلى "كيفية التصرف" في القرن الخامس عشر، إلى " كيفية التعبير" في القرن السادس عشر، إلى " كيفية معالجة موضوع ما" في إطار الفنون الجميلة في القرن

السابع عشر؛ لتستقر الدلاة الاصطلاحية على " كيفية الكتابة الخاصة بكاتب ما، أو جنس ما، أو عهد معين".

عرّفه "جورج مولينيه" على أنه " طريقة متميزة و متفردة وخاصة بكاتب معين".

وعرّفه أيضا كل من "مجدي وهبة" و "كامل المهندس" في معجمهما على أنه:" طريقة خاصة لاستعمال اللغة بحيث تكون هذه الطريقة صفة متميزة لكاتب، أو مدرسة، أو فترة زمنية، أو جنس أدبي ما"، أما " ميشال فوكو" فقد عرّفه على أنه "طريقة معينة في القول".

فالأسلوب، مما تقدم، هو طريقة معينة في القول أو الكتابة يتفرد بها شخص ما أو عصر أو جنس... عن غيره.

ب/ مفهوم الأسلوبية (Stylistique):

من الصعب، إن لم يكن من المتعسر، ضبط مفهوم جامع مانع، بلغة المناطقة، للأسلوبية، فهو مصطلح واحد ذو مفاهيم متعددة، وأحيانا متناقضة، فلكل منظّر حدّه الخاص به الذي استنبطه من ممارساتها أو الاتجاه الأسلوبي الذي يتبناه. فلمصطلح الأسلوبية مفاهيم بعدد الاتجاهات التي تفرعت عنها، أو لنقل بعدد المنظرين الذين حاولوا ضبطها وروز جوانبها.

غير أن هذا لا يمكن أن يثنينا عن محاولة الاقتراب على الأقل من هذا المصطلح وتحديد مفهوم له يقرّب، ولو على نحو ما، الصورة ويجلّيها.

تُعرّف الأسلوبية في العادة على أنّها " تطبيق المعرفة الألسنية في دراسة الأسلوب"، أو أنّها " الدراسة العلمية للأسلوب في الأعمال الأدبية". كما تحدد أيضا على أنّها " البحث عما يتميز به الكلام الفني عن طريق خرق القواعد المعروفة للنظام اللغوي العادي، سواء في مستواه الصوتي أو الصرفي أو التركيبي أو الدلالي"، وهي أيضا كما يعرّفها "نور الدين

السّد":" الوجه الجمالي للّسانيات تبحث في الخصائص التعبيرية والشعرية التي يتوسّلها الخطاب الأدبي".

2/ مرجعيات الأسلوبية: تضرب الأسلوبية بجذورها في البلاغة القديمة، وتقوم على أنقاضها وتتجاوزها، كما ترجع إلى أبوين فتيين هما :" اللّسانيات الحديثة" و " علم الجمال".

3/ مجال الأسلوبية:

يُعَدُّ التعبير اللّغوي عموما مجال ومدار اشتغال الدرس الأسلوبي، غير أن الأسلوبية ركّزت في دراستها على النّص الأدبي محاولة سبر أغواره الفنية، والكشف عن إمكاناته المتفردة، من خلال الغوص في مستوياته الصوتية والصرفية والتركيبية والمعجمية والدلالية، وتبيان مدى انزياح وعدول النّص الأدبي عن المعيار اللغوي المتعارف عليه. فوظيفة الأسلوبي تتمثّل في رصد الظواهر والسّمات الأسلوبية البارزة في النص وتحليلها، والكشف عن دلالتها ولذتها الجمالية باعتبارها المحرك الرئيس للخلق الأدبي.

4/ نشأة الأسلوبية:

لا يماري أحد بأن نشأة الأسلوبية ارتبطت ارتباطا وثيقا بميلاد اللّسانيات الحديثة على يد عالم اللغوي السويسري "فرديناند دي سوسير" من خلال محاضراته " محاضرات في اللّسانيات العامة" التي جمعها ونشرها بعد وفاته كل من " ألبير سشهاي" و " شارل بالي"، هذا الأخير الذي نشر في بداية القرن العشرين (1909م) كتابه " مبحث في الأسلوبية الفرنسية" (Traité de Stylistique française)، والذي يعتبر نقطة الانطلاقة الحقيقة للدراسات الأسلوبية في العصر الحديث، سعى من خلاله، بالاستناد إلى الدراسات اللّسانية، إلى دراسة وقائع التعبير اللغوي، محاولا الكشف عن المحتوى العاطفي المؤثر في القارئ أو المستمع.

ثم توالت الدراسات الأسلوبية بعد ذلك وتنوعت واتجهت اتجاهات مختلفة، منها: البنيوي والإحصائي والنفسي والسيميائي وغيره. ليعلن بعض الباحثين موتها سنة 1969م، حيث يشير "جورج مولينيه" أن " إعلان الموت ظهر في العدد الأول من مجلة اللغة الفرنسية–1969– المخصص للأسلوبية"؛ وذلك بسبب أنها فرع من علم آخر، ولا تتمتع بالاستقلال الذاتي. غير أن إعلان الموت لا يتغلق– بالطبع– إلا بنفر من الباحثين فحسب، وإلا فإن الأسلوبية لا تزال حياة لحد الساعة، وتمارس نشاطها التحليلي والقرائي على يد باحثين جادين مهتمين بهذا المجال.

5– صلة الأسلوبية بالعلوم الأخرى:

أ/ صلة الأسلوبية باللسانيات:

أشرنا، كما تقدّم، إلى أن الأسلوبية ولدت في أحضان اللّسانيات الحديثة، فهي بالتالي أحد فروعها، أو الوجه الجمالي للّسانيات، كما يعبّر عن ذلك الباحث الجزائري " نور الدين السّد"، تُعنى بالإمكانات التعبيرية للّغة، وتفحص السّمات التي يتميز بها نص عن غيره. فالأسلوبية " وليدة رحم علم اللغة الحديث، فهي مدخل لغوي لفهم النص"؛ لذا فقد استثمرت الأسلوبية في دراستها للنصوص والأثار الأدبية العديد من القضايا والمسائل التي توصلت إليها اللسانيات الحديثة.

فقد استفادت الأسلوبية من مصطلحات اللسانيات من مثل: "اللغة و الكلام" عند " دي سوسير"، و" الكفاءة والأداء" عند " تشومسكي" في توضيح المعيار اللغوي الذي تجري عليه الانزياحات الأسلوبية، فاللغة هي النموذج، والانزياح جارٍ في الكلام الذي هو فردي وإبداعي.

كما استفادت أيضا من مصطلحي " الدال والمدلول" عند "دي سوسير"، فجعلت النص كله دالا، والمعنى الذي ينبغي الوصول إليه مدلولا.

واستفادت الأسلوبية من اللسانيات العامة مصطلحي " السنكرونية" (التزامنية) والدياكرونية (التعاقبية) في التأطير لمناهج بحثها في النص، ومصطلحي البنية السطحية (ويمثلها الكلام المنطوق)، والبنية العميقة (الجذور التي تمد البنية السطحية بمقوماتها وتحويلاتها) عند " تشومسكي "، حيث أفادت منهما في توضيح العدول الذي يحصل نتيجة الانزياح عن اللغة النموذج. بالإضافة إلى استفادتها من معجم مصطلحات اللسانيات العامة عموما.

غير أن الأسلوبية لم تقصر استفادتها على اللسانيات فحسب، فقد مدّت يدها وأخذت من علم الاجتماع وعلم النفس والرياضيات والمنطق وغيرها مما يغذي إجراءاتها التحليلية.

ب- صلة الأسلوبية بالنقد الأدبي:

تعتبر الأسلوبية مدرسة لغوية تعالج النص الأدبي من خلال عناصره ومقوماته الفنية وأدواته الإبداعية، متخذة من علم اللغة والبلاغة جسرا تصف به النص الأدبي، وتقييمه أحيانا من خلال منهجها القائم على الاختيار والتوزيع، مراعية في ذلك الجانب النفسي والاجتماعي للمرسل والمتلقي؛ ومنه فإن الدراسة الأسلوبية عملية نقدية ترتكز على الظاهرة اللغوية، وتبحث أسس الجمال المحتمل قيام الكلام عليه؛ وبذلك تكون الأسلوبية بمثابة القنطرة التي تربط العلاقات بين علم اللغة والنقد الأدبي.

ولعل التقارب بين الأسلوبية والنقد الأدبي يتم من خلال التعاون على محاولة الكشف عن المظاهر المتعددة للنص الأدبي من حيث التركيب، اللغة، الموسيقى ... .

إن العلاقة بين الأسلوبية والنقد الأدبي حددها بعض الباحثين في ثلاثة اتجاهات:

فالأول: يرى أن الأسلوبية مغايرة للنقد الأدبي؛ حيث إن اهتمام الأسلوبية ينصب على لغة النص ولا يتجاوزها، فوجهتها في المقام الأول وجهة لغوية، أما النقد فاللغة هي أحد العناصر التي يفحصها في الأثر الأدبي، ففي النقد بعض ما في الأسلوبية وزيادة.

أما **الثاني:** فيرى أن النقد قد استحال إلى نقد للأسلوب، وصار فرعا من علم الأسلوب، ومهمته أن يمدّ هذا العلم بتعريفات جديدة، ومعايير جديدة.

وأما **الثالث:** فينظر إلى العلاقة بين الأسلوبية والنقد على أنها علاقة جدلية قائمة على ما يمكن أن يقدّمه كل طرف للآخر، فكلاهما يستطيع أن يمدّ الآخر بخبرات متعددة استقاها من مجال دراسته.

إن الأسلوبية نظرة نقدية شاملة تشمل النص بكل تكويناته (الصوتية، الصرفية، المعجمية، التركيبية، الدلالية...)، وعلى الرغم من الصلة الوثيقة بين الأسلوبية والنقد، فكل منهما يصف ويحلل ويركب ويفسر؛ فإنه بينما تكتفي الأسلوبية بالكشف والتقرير انطلاقا من اللغة، من خلال محاولة تبيان ما داخل البناء اللغوي من انزياحات عن القاعدة المعيارية، يعمد النقد الأدبي إلى التقييم وإصدار الأحكام، والإجابة عن أسئلة من مثل: كيف ولماذ؟ مستعينا بكل ما يراه من أدوات تخدم هدفه، ولا شك أن النقد يستقيم أكثر إذا ما أفاد من التحليلات الأسلوبية.

ج/ صلة الأسلوبية بالبلاغة:

يُتداول كثيرا بين الباحثين عند الحديث عن علاقة الأسلوبية بالبلاغة، أن الأسلوبية وليدة البلاغة والوريث الشرعي والمباشر لها؛ فالبلاغة هي أسلوبية القدماء، وهي أداة نقدية تستخدم في تقويم الأسلوب الفردي، وهذه أهم سمة قائمة في الأسلوبية المعاصرة. كما تفترض كل من الأسلوبية والبلاغة حضور المتلقي في العملية الإبداعية (مطابقة الكلام لمقتضى الحال)، وهو في الأسلوبية شرط ضروري لاكتمال عملية الإنشاء، فالمتلقي هو الذي يبعث في النص الحياة، كما أن محور البحث في كليهما هو الأدب.

رغم ما بين البلاغة والأسلوبية من صلات؛ فإنهما يفترقان عند جملة النقاط، وهو ما يفند الزعم القائل بأن الأسلوبية لا تختلف عن الدراسة البلاغية للنص الأدبي:

1- اعتنت الأسلوبية عناية كبيرة بالمُخاطِب (المبدع)، أم البلاغة فقد أغفلت المبدع وحالته النفسية والاجتماعية بشكل عام، واعتنت بالمُخَاطبِ (المتلقي) عناية فائقة (ضرورة مطابقة الكلام لمقتضى الحال).

2- البحث البلاغي يتجه إلى الاهتمام بنوع خاص من الكلام، وهو الكلام الأدبي، أما التحليل الأسلوبي فيشتمل على كل أجناس الكلام.

3- البلاغة علم معياري يرسل الأحكام التقييمية، ويرمي إلى تعليم الأفضل من القول، بينما تنفي الأسلوبية عن نفسها كل معيارية، وتعزف عن إرسال الأحكام التقييمية بالمدح أو التهجين، ولا تسعى إلى عناية تعليمية البتة.

4- البلاغة فصلت الشكل عن المضمون، فميّزت في رسائلها العلمية بين الأغراض والصور، بينما ترغب الأسلوبية عن كل مقياس قبلي، وترفض مبدأ الفصل بين الدال والمدلول؛ إذ لا وجود لكليهما إلا متقاطعين، ومكونين للدلالة، فهما بمثابة الورقة الواحدة.

5-اعتمدت البلاغة على نحو الجملة (حصر التحليل في الجملة باعتبارها أكبر وحدة قابلة لذلك)، بينما التفت التحليل الأسلوبي إلى نحو النص، من خلال تحليل العلاقات اللغوية فيما وراء الجملة، ووصف الخواص الأسلوبية التي تحقق الاستمرارية البنيوية للنص، ووسائل الربط والسبك اللغوية والمضمونية.

6- يغلب على علوم البلاغة الطابع التفتيتي؛ أي تجزيئ الظاهرة الأدبية، بينما تغلب تصورات البنية والمنظومة في كثير من الدراسات الأسلوبية.

خاتمة:

تبين مما تقدم أن الأسلوبية فرع علمي يسعى للكشف عما يميز الخطاب الأدبي عن سواه. امتحت تصوراتها في مقاربة النصوص من اللسانيات الحديثة وعلم الجمال

والبلاغة القديمة في بعض جوانبها، كما أنها مدّت أذرعها للاستفادة من علوم أخرى على غرار النقد الأدبي وعلم النفس وعلم الاجتماع وغيرهم.

المراجع:

1/ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم ، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، د. ط، 1994، مادة (سلب).

2/ عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1978.

2/ يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، دار جسور للنشر والتوزيع، المحمدية، الجزائر، ط1، 2007.

3/ جورج مولينيه، الأسلوبية، تر(بسام بركة)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1999.

4/ مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، د. ط، 1984.

5/ بشير تاوريريت، محاضرات في مناهج النقد المعاصر، دراسة في الأصول والملامح والإشكالات النظرية والتطبيقية، دار الفجر للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر، ط1، 2006.

6/ يوسف أبو العدوس، الأسلوبية، الرؤية والتطبيق، دار المسيرة، عمان، الأردن، ط1، 2007.

7/ موسى ربابعة، الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، دار الكندي، إربد، الأردن، ط1، 2003.